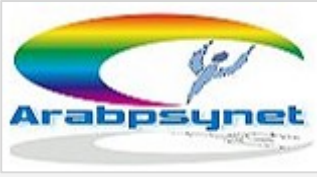


كتابه (رباعيات.. ورباعيات) (صلاح جاهين - عمر الخيام - نجيب سرور) الفصل الأول (2)



yehiatrakhawy@hotmail.com

نشرة "الإنسان" 2019/12/21

العدد: 4494 - العدد: 10

بروفيسور يحيى الرخاوي - الطب النفسي، مصر

.....

.....

تساؤلات، بلا إجابة حاسمة:

وهو إذ يطلب الجواب المحدد لتساؤلاته، يحاول أن يجد مفهوما كاملا واضحا متصلا لكل علامات

الاستفهام التي حيرته وأقلقت، ولكنه لا يجد الجواب شافيا، وكثيرا ما لا يجد جوابا . أصلا . فيقول:

أسأل سؤال والرد يرجع سؤال..؟

وأخرج وحيرتي أشد مما دخلت؟

أو:

ده ياما فيه سؤالات من غير ردود؟

وهو يتساءل عن أصل الوجود:

الأصل هو الموت ولا الحياة ؟

وعن عمق الإيمان:

قلبي ارتجف وسألني أمن بآيه؟

أمن بآيه مختار بقالى زمان؟

وعن ذاته:

دقيت سنين والرد يرجع لى: مين؟

لو كنت عارف مين أنا، كنت أقول؟

وعن حقيقة أعماقه، وما يختفى وراء ظاهره يتساءل:

يامرايتى يالى بترسمى ضحكى

ياهلترى دا وش ولا قناع؟

وحين تحدد أزمة المواجهة بحثا عن إجابات محددة لترجح كفة من كفتى صراع ما، ينتبه صلاح إلى

أنه زودها "حبتين"؛ فيحاول أن يقنع نفسه بأن "بغوت" .. فالحياة لا ينبغي أن تقاس بهذه المقاييس الحادة،

فما بهذا الاستقطاب تحل الصراعات، وليس ثم فاصل محدد - مثلا - بين الصواب والخطأ، بين الصدق

والكذب، فيكتب:

وقفت بين شطين على قنطرة

الكذب فين والصدق فين ياتري؟.

مختار حاموت، الحوت طلغلى وقال

هو الكلام يتقاس بالمسطرة ؟

إلا أن هذا "التقويت" لا يحضره بهذه السهولة، إن كان يحضره أصلا، فموقفه الغالب، إن لم يكن

هو إذ يطلب الجواب المحدد لتساؤلاته، يحاول أن يجد مفهوما كاملا واضحا متصلا لكل علامات الاستفهام التي حيرته وأقلقت، ولكنه لا يجد الجواب شافيا، وكثيرا ما لا يجد جوابا

الحياة لا ينبغي أن تقاس بهذه المقاييس الحادة، فما بهذا الاستقطاب تحل الصراعات، وليس ثم فاصل محدد - مثلا - بين الصواب والخطأ، بين الصدق والكذب

الدائم هو موقف المصارع الذى يشق طريق بقاءه فى مواجهة حاسمة لحظة بلحظة، فهو يستقبل نهارا جديدا بهذا الموقف:

نهار جديد أنا، قوم نشوف تعمل إيه؟.

أنا قلت يا حقتلنى.. ياح اقلتك

فهو تائر فى البداية، تائر فى النهاية، ولو بالتحطيم:

إقلع عُماك ياتور وارفض تلف..

إكسر تروس الساقية واشتم وتِف

إلا أن ثورته ليست طفلية أو مثالية، تتماهى فى إنكار الواقع، والمغالاة فى إمكان المستحيل، فهو يبنه نفسه إلى أنه يستحيل أن يحصل على شئ إلا إذا دفع ثمنه، إلا إذا تنازل عن شئ بالمقابل:

جالك أوان ووقفت موقف وجود

ياتجود بذه ياقلبي، يابذه تجود

وهو يدرك تماما أن المسألة لا تنتهى بمجرد وضوح الرؤية، فحتم الاختيار لا يقتصر على التفضيل بين الغايات، بل إنه لازم- أيضا - فى انتقاء الوسيلة التى توصل إلى الهدف.. فالحيرة لا تنتهى حتى لو وضحت معالم الطرق، فالاختيار ممتد أبدا:

ولما ييجى النور.. واشوف الدروب

أحترار زيادة... أيهم أسلكه..؟

صراع وتحدي وثورة:

هذا القلق الوجودى المُلِحّ، هو الثقل المتذبذب الذى يظل يحرك كفتى الميزان، لتميل إحدهما إما إلى الفرح وإما إلى الانقباض، إما إلى الانطلاق والامتداد، وإما إلى الانهباط والارتداد، وهذا هو البعد الذى سوف تركز عليه هذه الدراسة، بما لا يعنى أنه البعد الأوحد، ولكنّه الأظهر فى هذه الشخصية بوجه خاص، وفى هذا الإبداع (الرباعيات) بوجه أخص.

تجليات "الحالة الفرجائقباضية" على الجانبين.

حتم التناوب:

تتكرر نوبات الوجود بشكل منتظم، لكن النوبات فى مثل هذه الحالة ليس لها نمط محدد يلزم بالانتظام أو التناوب، فمرة ترجح هذه الكفة وأخرى ترجح تلك، والحزن ينتهى ويحل محله الفرح، والعكس صحيح، أو هو ينتهى من حزن إلى حزن أكبر، ثم إلى فرح يقصر أو يطول، يتكرر، لكن ما يميز هذه الحالات، هى أنها موقوتة، لها عمر افتراضى محدود عادة، (اللهم إلا إذا أزمنت حتى يتكلس الوجود برمته)، وصلاح جاهين يعرف ذلك بحدسه الفائق، وهو يلتقط إنذارات الاكتئاب، فيحذر من الاستغراق فيه، ثم يذكّر نفسه أنه حتى لو لم يستطع أن يتجنب حتميته، فنوبته قصيرة العمر بالضرورة:

حاسب من الأحزان وحاسب لها

حاسب على رقابيك من حبلها

راح تنتهى، ولا بد راح تنتهى

مش انتهت أحزان من قبلها؟

وعلاقة هذا التناوب بفصول السنة وثيقة⁽²⁾، ولكنها غير منتظمة، فليس هناك فصل بذاته عند صلاح جاهين يغلب فيه نوع على الآخر، ولكننا نلاحظ أن نمّ تغييرا يحدث مع قدوم الربيع أو الشتاء، ولكنه لا يحدث فى اتجاه واحد، أى أنه ليس هناك تلازم واضح بين فصل بذاته ودور بذاته، فالمسألة ليست فى أن يدب النشاط - مثلا - فى فصل الشتاء، ويسود الهمود فى فصل الصيف، أو تتفتح النفس فى الربيع، وتظلم فى الشتاء أو الخريف، بل إن صلاح يحدد أن التناوب الأعلى فى لحن الوجود، هو التناوب المتناغم الممتلئ بما هو أهل للامتلاء به، نسمع هذا الحوار:

الدنيا من غير الربيع ميّنة

أن ثورته ليست طفلية أو مثالية، تتماهى فى إنكار الواقع، والمغالاة فى إمكان المستحيل، فهو يبنه نفسه إلى أنه يستحيل أن يحصل على شئ إلا إذا دفع ثمنه، إلا إذا تنازل عن شئ بالمقابل

هو يدرك تماما أن المسألة لا تنتهى بمجرد وضوح الرؤية، فحتم الاختيار لا يقتصر على التفضيل بين الغايات، بل إنه لازم- أيضا - فى انتقاء الوسيلة التى توصل إلى الهدف

الحيرة لا تنتهى حتى لو وضحت معالم الطرق، فالاختيار ممتد

ورقة شجر ضعفانة ومفتتة

لا ياجدع غطان تأمل وشوف

زهر الشتا طالع فى عزّ الشتا

وهو يحس أن الشتاء فصل مفترى عليه، فعلى الرغم مما يتساقط فيه من مظاهر الحياة، فإن هذا لا

يعنى أنه فصل الموت، ففى عمق تناسقه مع دورات الطبيعة، لا يمثل الشتاء إلا إحدى دورات الإيقاع

الذى لا يكتمل إلا باستمرارية دوراته، فالذى لا يموت فى الشتاء هو هذا الوجود الأعمق للمسيرة الدورية،

بغض النظر عما يهدم من سلوك ظاهر:

دا حاجات كتير بتموت فى ليل الشتا

لكن حاجات أكثر بترفض تموت

والتناقض بين نبض الطبيعة الحيوى، ونبض الإنسان المواكب هو الذى يزيد حدة المواجهة، حتى

تبدو صارخة دالة منذرة.

وجاهين يحاور الربيع تلو الربيع حوارا حيا، متنوعا، دالا:

دخل الربيع يضحك لقانى حزين

نده الربيع على إسمى لم قلت مين؟

حط الربيع أزهاره جنبى وراح

وايش تعمل الأزهار للميتين؟

وهو يحدد مضاعفات التناقض بين طبيعة كونية تواصل دوراتها المنتظمة، وبين طبيعة بشرية لا

تواكب هذا التقوّح المتولّد، فتبدو هامة مية، أو هى كالمجمّدة، فى مواجهة نبض الكون الحيوى. يجسد

صلاح هذه المواجهة فى قوله:

وانا ليه بيمضى ربيع وييجى ربيع

ولسه برضه قلبى حته خشب

ويستقبل صلاح ربيعاً آخر، فإذا بنسمته "تكوي" بدلا من أن "تتّعش"، وبهذا الإلحاح على إظهار عدم

الالتزام بما شاع - مثلا - أن الربيع فصل الحب، وأن الصيف فصل الخمول، وأن الشتاء فصل

الكمون.. إلخ تنتقل الرباعيات بإبداع خاص، لتصف تجليات المزاج المختلفة حتى التناقض مع كل ربيع

بشكلٍ مغاير، نسمع معا:

نسمة ربيع لكن بتكوى الوشوش

.....

هيه الحياة كده كلها فى الفاشوش؟

الربيع يكوى، والحياة فى الفاشوش إذا دارت دورته ولم تواكب دورة الكون، أما إذا اتسقت دورته مع

دورة الكون، فإن اللحن يصدح فى كل منهما فى رقصة لا مثيل لها، هذا ما يعلنه صلاح وهو يستقبل

الربيع بالهتاف والصياح والفرح والأمل، يستقبله طفلا يولد منتعشا مثيرا لكل ما هو فرحة، وكل ما هو

أمل، فيتوّجّه به (يا طفل ياللى ف دمى) ليصبجا طفلا واحدا يناغى بعضه بعضا، حتى ترقص بهما

السعادة، فتفيض منه وبه إلى درجة أن يحب دود الأرض والغربان:

مرحب ربيع مرحب ربيع مرّحبا

يا طفل ياللى فى قلبى ناغى وحبّا

عشان عيونك ياصغنن هويث

حتى ديدان الأرض واللّغربا

وهكذا نخلص إلى أن نرى كيف أن صلاح، فى رباعياته خاصة، قد عزى بجدسه المبدع، الطبيعة

الدورية (الإيقاعية) لكل من الإنسان والكون، كما أنه قد غاص فى أطوارها إذ تتناسق وتتناغم، وإذ

تتجاوز وتتجادل، وإذ تتناقض ويواجه بعضها بعضاً، كل ذلك بإيجاز رائع.

القلق الوجودى المُلقح، هو
الثقل المتذبذب الذى يظل
يحرك كفتى الميزان، لتميل
إحداهما إما إلى الفرح وإما
إلى الانقباض، إما إلى الانطلاق
والامتداد، وإما إلى الانهيار
والارتداد

أن التناقض الأعلى فى لحن
الوجود، هو التناصب المتناغم
الممتلئ، بما هو أهل الامتلاء به

لا يمثل الشتاء إلا إحدى دوراته
الإيقاعية الذى لا يكتمل إلا
باستمرارية دوراته

الذى لا يموت فى الشتاء هو
هذا الوجود الأعمق للمسيرة
الدورية، بغض النظر عما
يهدم من سلوك ظاهر

ثم ننتقل لنقرأ معا كيف صوّر كلاً من طوري النبض الحيوي الدوري في رباعياته. نبدأ بالاكْتئاب:

.....

(ونواصل مع صلاح أيضاً الأسبوع القادم)

- [1] المقتطف من كتاب "رباعيات ورباعيات" (الطبعة الأولى 1979، والطبعة الثانية 2017) والكتاب متاح في مكتبة الأنجلو المصرية وفي منفذ مستشفى دار المقطم للصحة النفسية شارع 10، وفي مركز الرخاوي: 24 شارع 18 من شارع 9 مدينة المقطم، كما يوجد أيضاً بموقع المؤلف www.rakhawy.net وهذا هو الرابط

- [2] وقد وضعتُ لذلك فرضاً يفترض أن هذه الاضطرابات تنشأ، حين لا تتوافق دورات الإنسان الفصليّة، مع دورات الكون الطقسية، وبتعبير أدبي: "حين تفتّح الزهور في الربيع، ولا يفتّح الإنسان معها، أو لا يفتّح بسرعتها، أو لعله يزداد انغلاقاً في مواجهتها"، يحدث الاضطراب وخاصة النوع الوجداني منه.

نخلصُ إلى أن نرى كيف أن طالع، في رباعياته خاصة، قد يحوي بحسه المبدع، الطبيعة الدورية (الإيقاع الحيوية) لكل من الإنسان والكون

إرتباط كامل النص:

<http://www.arabpsynet.com/Rakhawy/RakD211219.pdf>

*** **** **

شبكة العلوم النفسية العربية

نحو تعاون عربي رقياً بعلوم وطب النفس

الموقع العلمي

<http://www.arabpsynet.com/>

المتجر الإلكتروني

<http://www.arabpsyfound.com>

الكتاب السنوي 2019 " شبكة العلوم النفسية العربية " (الاصدار السادس)

(التأسيس: 2000/01/01 - على الويب: 2003/06/13)

<http://www.arabpsynet.com/Documents/eBArabpsynet.pdf>

مؤسسة العلوم النفسية العربية

جائزة " قتيبة شلبي " لشبكة العلوم النفسية العربية للعام 2019

تتشرفه شبكة العلوم النفسية العربية بإطلاق اسم:

" البروفيسور قتيبة شلبي "

(الطب النفسي، العراق / أمريكا)

على جائزتها العام 2019 المخصصة للأعمال العلمية في الطب النفسي

تقديرًا لمسيرته العلمية المميزة

واعتزازًا لما قدمه من خدمات جليلة للطب النفسي الشرعي على المستوى العالمي

ارتباطات ذات صلة

دليل جائزة شبكة العلوم النفسية على المتجر الإلكتروني

<http://www.arabpsyfound.com/arabpsynet.php?p=2>

دليل جائزة شبكة العلوم النفسية على الفيس بوك

<https://www.facebook.com/Arabpsynet-Award-289735004761329/?ref=bookmarks>